

الخوف من الله

23 جمادى الأولى 1430
7 مايو 2010

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد عباد الله
يقول الله سبحانه وتعالى : (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي أطوى)

فالخوف عباد الله سوط الله الذي يقوم به الشاردين عن بابه ، فمن خاف إلقاء بين يدي سيده ومولاه يوم العرض ونهى النفس عن متابعة هواها وردّها عن غيرها ومبتغائها (فإن الجنة هي أطوى)

فاتقوا الله تعالى أيها الأخوة وخافوه وضعوا نصب أعينكم خشيته وحده ولا تخشوا أحدا غيره. وكما قال الفضيل رحمه الله : من خاف الله لم يضره أحد ، ومن خاف غير الله لم ينفعه أحد. وكما قال الله تعالى : " فلا تخشوا الناس واخشون " . وقال أيضا (فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين)
فإنك يا عبد الله إذا خفت من مخلوق هربت منه ولكنك إذا خفت من الله هربت إليه فالخائف من الله هارب من ربه إلى ربه . (ففروا على الله إنني لكم منه نذير مبين) الذاريات.

قال ذو النون المصري الناس على الطريق ما لم يُزل عنهم الخوف . فإذا زال عنهم الخوف ضلوا الكريق. والخوف إله حمود الصادق ما حال ما بين صاحبه وبين محارم الله عز وجل. قال أحد الصالحين: صدق الخوف هو الورع عن الأثام ظاهرًا وباطنًا. ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه : " الخوف إله حمود : ما حجزك عن محارم الله "

أيها الأخوة الأحبّة في الله إن موضوع حديثنا في هذه الخطبة عن الخوف من الله ومقام الخوف من الله تعالى ، وما دعاني للحديث في هذا الموضوع العظيم هو ما نراه من واقع حال المسلمين من بُعد عن الله تعالى وتجروء عليه بأنواع الذنوب وإطعاصي بلا حياء ولا خجل ولا خوف ولا وجل . وما كان ذلك إلا لضعف جانب الخوف من الله تعالى في قلوب هؤلاء العصاة وكما قيل لا تنظر إلى صخر إمعصية

ولكن أنظر إلى عظم من عصيت. وما تجرأ الناس على إقتراف المعاصي والذنوب إلا بسبب غفلتهم عن الله ونسيان الدار الآخرة .

فالخوف من الله هو صمام الأمان أمام الوقوع في المعاصي والإنزلاق في مستنقع الشهوات والملذات . فالخوف من الله هو الذي يوقد في القلب جذوة الخشية التي تدفع المرء إلى فعل الطاعات وترك المعاصي والبعد عن الشهوات. وكلما زاد الإيمان في قلب المرء من زادت الخشية في قلبه فالإيمان يزيد وينقص بالطاعة وينقص بالمعصية.

ففائدة الخوف التقوى والورع والمبادرة والإجتهاد في العبادة والطاعة . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أشد الناس لله خشية وأكثرهم له رهبة وكان إذا وقف يصلي من الليل يسمع لدمعه وقع كوكف المطر . وكان إذا تغيرت الريح تغير وجهه (خوفا من غضب الله تعالى) ويتردد خارجا وداخلا خوفا على أمته من عذاب الله تعالى. قال صلى الله عليه وسلم : " ما جاءني جبريل قط إلا وهو يردد فزعا من الجبار عز وجل " . وعلى قدر الإيمان بالله وعلى قدر العلم بالله ومعرفة الله يكون الخوف وتكون الخشية يقول تعالى : " إنما يخشى الله من عباده العلماء " والخشية درجة أعلى وهي لأخص من الخوف . فعلى قدر العلم والمعرفة تكون الخشية ويكون الخوف كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إني لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية " ، وقال صلى الله عليه وسلم " لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذذتم بالنساء على الفراش ولا تجتم على الصغدرات تجأرون على الله " . قال الإمام أحمد هذا يدل على أن كل من كان لله أعرف كان منه أخوف .

وروي أن إبراهيم الخليل عليه السلام أنه كان كثير البكاء ، وكان إذا وقف يصلي يسمع لقلبه أزيز كحس المرجل (وهي القدر إذا استجمعت غليانا) . هذا خوف المرسلين مع عصمتهم من المخالفات والوقوع في المعاصي والشهوات ، وطهارتهم عن الزلات . وهذا محمد صلى الله عليه وسلم وهو الذي غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر يقوم الليل حتى تتورم قدماه ويبكي حتى يبيل بدموعه الثرى وعندما يُقال له في ذلك يجيب صلى الله عليه وسلم " أفلا أكون عبد شكوراً "

أيها الأخوة المؤمنون :

يقول تعالى : " إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون " الأنفال 2 .

فالمؤمن حقاً من كانت هذه صفاته : ألوجل عند ذكر الله تعالى ، وأخشوع عند سماع كتاب الله تعالى ، والتوكل على الله تعالى ، ولزوم طاعة الله تعالى ، والجود بما أعطاه الله تعالى .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يدخل النار من بكى من خشية الله تعالى حتى يلج اللبني في الضرع " رواه الترمذي والنسائي وصححه الألباني في صحيح الجامع . قال أبو سليمان الداراني ما فارق الخوف قلباً إلا خرب .

فإذا حل خوف الله والرهبته منه قلب العبد حالت بينه وبين الوقوع في المحرمات ، وسوف يحجزه خوفه من إقتراف المعاصي والذنوب ، فلا يأكل مالا حراماً ، ولا يشهد شهادة زور ، ولا ينم ولا يغتاب ، ولا يحلف كاذباً ولا يخلف وعداً ، ولا يخون عهداً ولا يخش في المعاملة ولا يخدع شريكه ولا يخون أمانته ، ولا يزني ولا يتعاطى محرماً ولا يتناول الخمر والمسكرات ، ولا المخدرات ، ولا يهجر مساجد الله ولا يترك الصلاة في جماعة ، ولا يضيع أوقاته في اللهو والغفلة ، بل تجده دائماً مشمراً عن ساعد الجد والمثابرة في طاعة الله تعالى . وهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من خاف أدجاً ومن أدج بلغ المنزل ، ألا وإن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة " . رواه الترمذي وهو حديث حسن . والمراد بهذا الحديث الجد والعمل والتشمير في الطاعات من بداية العمر لأن الجنة غالية تحتاج لمن يدفع الثمن الغالي ، ومن يخطب الحسنة لم يُغله طهر . وقد كان السلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم يغلبون دائماً جانب الخوف في حيا الصحة والقوة فيجتهدون في الطاعات ويكثروا من ذكر الله تعالى ويتقربون إليه بالنوافل والعمل الصالح .

أيها الأخوة المؤمنون إن الخوف من الله تعالى هو الذي يعصم من فتنة هذه الدنيا ، وبدون الخوف لا يصلح قلب ولا تستقيم حياة ولا يهذب سلوك . فالخوف من الله هو الدافع إلى التقوى في السر والعلن ، وهو الباعث على إجتناّب ما حرم الله ،

فلا شيء يثبت الإيمان ويزيد من اليقين عند العبد في خضم هذه الأحداث الهائلة إلا اليقين بالآخرة والإيمان بها والخشية والخوف مما أعد الله من العذاب الأليم لمن خالف أمره وعصاه.

روي أن الحسن البصري بكى فقبل له ما يُكيك؟ قال : " أخاف أن يطرحنى غدا في النار ولا يُبالي " . وهكذا من خاف الله في هذه الدنيا وخشي يوم الفرع الأكبر أمن من الخوف يوم القيامة فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه : " وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين : إذا خافني في الدنيا أمنت يوم القيامة ، وإذا أمني في الدنيا أخفته يوم القيامة " رواه ابن حبان في صحيحه .

أيها الأخوة الكرام لقد كان خوف السلف الصالح من الله شديد فهذا يزيد بن حوشب يقول : ما رأيت أخوف من الحسن وعمر بن عبدالعزيز كأن النار لم تخلق إلا ههما . وحقيق على كل مسلم أن يخاف الله وأن يخشى نار الجحيم ، وأن يستعيد بالله منها لأن الخبر ليس كالمعاينة يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد " رواه مسلم . وقال في وصف النار مُحذرا منها : " نار الدنيا جزء من سبعين جزءا من نار جهنم " وقد بلغ خوف السلف الصالح رضوان الله عليهم أن أحدهم يضع إصبعه في المصباح وهو الأحنف رشي الله عنه ثم يقول " حس ، حس ، ثم يقول يا خنيف ما حملك على ما صنعت يوم كذا وكذا " يُحاسب نفسه . وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه ربما تُقد له نار ثم يدني يديه منها ويقول : " يا ابن الخطاب هل لك صبر على هذا؟ " .

فحاسبوا أنفسكم أيها الأخوة قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم . واعلموا أن نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم كان يعظ أصحابه ويخوفهم النار ويريبهم على الخشية وأن يكون يوم الحساب دارثا نصب أعينهم فقال لأصحابه يوما : " إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون ، أظت السماء وحق لها أن تأنط ما فيها موضع قدم إلا وملاك وارضع جبهته ساجدا لله عز وجل ، والله لو تعلمون مل أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ، وما تلذذتم بالنساء على الفراش ، وخرجتم إلى الطرقات تجأرون إلى الله ، والله لو ددت أني شجرة تعضد " رواه البخاري .

وفي رواية قال " غرقت علي الجنة والنار فلم أرى كاليوم في الخير والشر " ثم ذكر الحديث . فما أتى على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أشد منه غطوا رؤسهم ، وهم خنين يشهقون بالبكاء ، وهول هذا اليوم تمنى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أنه شجرة تقطع وينتهي أمرها فكيف بنا نحن ؟ فعجبا من إستهتارنا وقلّة خوفنا وتمنينا على الله الأمانى ونجهل أن الموت يأتي بغتة و *** القبر صندوق العمل

فكيف ننام ويطيب لنا العيش والمقام ، قال الحسن البصري رحمه الله : لقد مضى بين أيديكم أوقوام لو أن أحدهم أنفق عدد هذا الحصى ، لخشي أن لا ينجو من عظم ذلك اليوم. فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما رأيت مثل النار نام هاربها ، ولا مثل الجنة نام طالبها " رواه الترمذي. والسبب في ذلك هو ضعف جانب الخوف من الله تعالى ، عندنا . فالله الله عباد اتقوا الله واخشوا يوم الحساب واعلموا أن سلفنا الصالح ما كانوا يبكون وتغلب عليهم الخشية والخوف من ذنوب إقتربوها أو فواحش فعلوها وإنما مخافة أن لا يتقبل منهم أعمالهم رضوان الله عليهم، وهكذا ما سألت عائشة رضي الله عنها وأرضاها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى (والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلت أنهم إلى ربهم راجعون) أهو الذي يزني ويسرق ويشرب الخمر ؟ قال : " لا يا ابنة الصديق ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه " قال الحسن عملوا والله بالطاعات واجتهدوا فيها ، وخافوا أن ترد عليهم. إن المؤمن جمع إحسانا وخشية وإن المنافق جمع إساءة وأمنا .

فالله أسأل أن يجعلنا ممن إذا خافه أطاعه وابتعد عن معاصيه.

إذا ما الليل أظلم كابدوه	***	فيسفر عنهم وهم ركوع
أطار الخوف نومهم فقاموا	***	وأهل الأمن في الدنيا هجوع
هم تحت الظلام وهم سجود	***	أنين منه تنفرج الضلوع
وخرس بالنهار لظلم صمت	***	عليهم من سكينتهم خشوع.